نظرات في النفس والحياة

— ١٦ —

نظرات جوتا أو (جيتا)

جوهان ولفجانج فون جوتا أو جوته الأديب الشاعر العالم الألماني — ربما كان بين الناس من بلغوا منزلته ، أو بذّوه في النثر أو الشعر أو العلوم المختلفة أو النقد. ولكن لم يكن بينهم من بلغ شأواً كبيراً في كل هذه العلوم والآداب كشأوه الكبير ، ومنزلته العظيمة . ومن أجل ذلك كان عجيبة زمانه ، وليس عظم منزلته في فنّ أو علم أو أدب واحد ، ولكن عظم منزلته في تبريزه فيها كلها . وقد كان شعاره تكميل النفس بالثقافة من كل مصدر وباب . وله في العلوم كشوف لم تكن معروفة من قبله ، ولو أنه أخطأ في نظرية نيوتن العالم الانجليزي . وكانت له رسائل في النقد في الفنون المختلفة والآداب ، وقصصه التمثيلية بعثت فن التمثيل في المانيا ، كما أن قصصه غير التمثيلية مهدت السبيل لفن القصص . ومن الغريب أنه اشتهر بيننا بأقل مؤلفاته منزلة عند النقاد ، وأعني قصة أحزان ورتر التي ترجمت الى العربية ، وكان قد ألفها في شبابه في العهد الذي أسماه عهد العاصفة والشدة ، وله تعادلاته لا كرمان ، ومراسلاته لشيلر الشاعر ، وترجمة حياته التي سماها (الحقيقة والخيال) . ولكن القصة الشعرية التي اشتهر بها في المانيا وبين الأدباء والمفكرين هي قصة (فوست) . والجزء الأول أسهل من الثاني . ولم يتم الجزء الثاني إلاّ بعد أن بلغ الشيخوخة ، وأودعه فكره وفلسفته في قالب شعري خيالي . وقد كان جوته يعيب على شعراء الرمزية جعل الشعر أوهاماً وأضغاث أحلام لا حقيقة تحتها . ومع ذلك فقد كان يلجأ الى الرمزية للتعبير عن الحقائق التي كما قال لا تُصوَّر إلاّ بها ، ولم يكن يعيب الرمزية لنفسها ، بل كان يعيب المذهب الخيالي (الرومانتيكي) . وقد لفته صديقه شيلر الى ما في شعره من هذا المذهب . ولا غرابة فإن من كانت نهمة بحثه وفكره وخياله لا تشبع ،

وربما لجأ الى هذا المذهب . ولعلّ إمرسون الاديب الشاعر الامريكي قد كان يعني ذلك في قوله إن جوتا وصل في بحث ما تكن عرفانه الى حدود المجهول ، ثم خطا خطوة وراء تلك الحدود وعاد سليماً !!! . وهذه مبالغة طريفة . ولكن من يحاول أن تكون له ثقافة متنوعة كثقافة جوتا لا بدّ أن تمدحه وتبجله ، وله كلمة يعترف فيها أنه ركب الشطط في طلب هذه الثقافة . وإعجابهما في هذه المقالات نظراته في النفس الإنسانية ، وهذه النظرات تعطيك في القراءة الثانية أكثر مما تعطيك في الاولى ، وقد اخترت بعضها لاظهر أنه لم يكن أقل بصيرة ممن كتبوا في صفات النفوس من أمثال مونتاني ، وباكون ولاروشفوكولد ، ولابروير . ولا يعجبني مسلك النقاد الذين يريدون الحط من قدر غيره ظناً أن ذلك يرفع قدره ، ولا مسلك الغالين في إعظامه حتى يكاد الإعظام يبلغ مرتبة التقديس والتنزيه . كما لا يعجبني مسلك الذين يحطون من قدره لأن له مواقف غرامية كثيرة ، أو لأنه لم يكتب قصائد ليشعل الحقد والبغض في نفوس الالمان ، وهم يحاربون الفرنسيين لطردهم من المانيا . ومن الغريب أنه جمع بين سهولة الادب الكلاسيكي القديم والطريقة الفلسفية أو الخيالية الالمانية المعقدة . وقد احترق بنزعة المفكرين الالمان الى هذا التعقيد ، فكأن مؤلفاته بناء جمع بين الطريقة الاغريقية التي كانت تنحو نحو السهولة ، وبين طريقة البناء القوطي التي تنحو الى غير ذلك .

وقد درج بعض الكتّاب على انتقاص لاروشفوكولد ، ومدح جوتا ، بدعوى أن الاول يكثر من اتهام النفس الانسانية بالأثرة ، كأن جوتا لا يفعل مثل فعله ، وسيتضح أنه يفعل ذلك ، ولا بدّ لباحث النفس أن يفعل . وهذه بعض نظراته مع التعقيب عليها : —

(١) في النفس قاعدة سيكولوجية ، وهي إنها تحاول أن تحوّل موضع ضعفها ونقصها الى مبدأ عام ممدوح . ومن أمثال ذلك : ان بعض الناس يحسبون التأنّي الذي سببه الخوف الكامن قوة لا يغلبها غالب ، ولا يقهرها قاهر ، مع ان إحجامهم قد لا يكون تبصُّراً وحزماً . وكذلك نرى الضعفاء الذين يعتنقون الآراء الثورية يحسبون أنهم يكونون أسعد حالاً باعتناقها ، ويكون الناس كذلك في أرغد عيش وحال ، ولا يفطنون الى أن ضعفهم يمنعهم من حكم أنفسهم ومن حكم الناس — وفي هذه النظرة أكثر من ذلك ،

فكما ان القاعدة ان النفس تزين موضع ضعفها ، فهي أيضاً تُقَبِّح وتُعَنِّف ما ليس فيها من الصفات التي تستطيع التخلق بها . فإن من لا يساعده طبعه على التخلق بآداب السلوك ، يرى أن آداب السلوك ضعف ، ومذلة ، ونقص . وتقبيح ما ليس في نفسه من الصفات الحميدة أو المقبولة لا يتمه إذا كان له أرب من مدح ما لا يتخلق به من صفات الحمد في بعض الأحايين كي يحسب الناس أنه انما مدحها لأنها من صفاته ، إذ أن النفس لها وسائل مختلفة متناقضة ، تحاول بها كسب المدح والإعظام .

(٢) مهما عاش الانسان في عزلة عن الناس منفصلاً عنهم بأفكاره واحساساته وأعماله ، فإنه لا بد أن يكون إما مديناً واما دائناً لغيره في تلك الأمور كلها أو بعضها . ولكن القاعدة هي ان الناس اذا قابلوا انساناً مديناً لهم بفضل ، تذكروا ما هو مدين لهم به ، وكانوا أسرع الى التفكير فيما دانوه به من الفضل . أما اذا قابلوا انساناً هم مدينون له فإنهم قلما يذكرون فضله عليهم ، أو اذا ذكروه أسرعوا الى تجاهله ، ويضايقهم ما يلح في تذكيرهم به .

(٣) ان صفات النفوس تظهر في أعمالها ومعاملاتها . ومن أجل ذلك يخطىء من يظن أنه يستطيع أن يعرف صفات نفسه بالفكر وحده ، وبالتأمل في نفسه من غير ان ينظر الى صفاتها في أعمالها . والواقع أن النفس تحاول أن تفصل عمداً بين الأمرين ، وهذا الفصل قاعدة سيكولوجية فيها ، لأنها تعرف ان العمل قد يغريها بالتخلق بصفات ذميمة ما كان يتخلق بها المرء لولا اضطراره الى العمل والمعاملات . فكثيراً ما يتجاهل المرء عمداً صفات نفسه التي يظهرها اضطراره الى العمل والمعاملات ويكتفي بالحكم بصفات نفسه غير المضطرة وهي صفات أرق وأطهر ، وقد شبه جوتا نوعي الصفات بالسَّدَى واللُّحْمَة في النسيج أو بالزفير والشهيق في تنفس الانسان الحي . وقال إنه لا يستطاع معرفة النسيج من السَّدَى فحسب ، أو من اللُّحْمَة وحدها ، بل من الاثنين معاً . ومن أجل ذلك يغيظ المرء ان تذكره بصفاته التي تظهرها أعماله ومعاملاته . لأن هذا الفصل بين نوعي الصفات يساعد المرء على التخلق بما يشاء من صفات السوء وهو مطمئن راض عن نفسه .

(٤) لو كان اختيار الانسان للباطل سببه خطأ الفكر من غير ان يكون الباطل متصلاً بميول نفسه ونزعاتها وعواطفها وأخلاقها ، سهل تصحيح الباطل وتلافيه ، ولكن اتصاله

بما يجعل تصحيحه وتلافيه أمراً شاقاً أو مستحيلاً . ومن أجل ذلك اذا استعصى على الانسان تصحيح خطأ أو باطل في نفس انسان آخر خدع نفسه ، وأوهمها ان ذلك الخطأ وان ذلك الباطل من خلال فكر صاحبه ومن أغلاطه العقلية غير المتصلة باحساساته ونزعاته واذا يغالط نفسه هذه المغالطة كي يجعلها تأمل إزالة ذلك الباطل . اذ كان لها خير في إزالته ، إذ أنه يدرك بالفطرة أن مكافحة الخطأ الفكري الخالص من شوائب النفس أقل مشقة وأيسر مؤولة وكلفة . وهذا يعلل أمل بعض الناس في التفاهم مع من لا يرجى التفاهم معهم واقناعهم بما لا يمكن اقناعهم به . ولا سيما أن الأمل في التفاهم اذا ازداد صير توقع حدوث التفاهم كأنه قد حدث كما هو شأن الأمل في أي أمر آخر . فاذا استجدت أسباب تغير من نزعات من لا يريد التفاهم ومن ميوله النفسية حتى يرى في التفاهم نفعاً له لبس الزهو جاهله ونسب هذا التغير الى قدرته على الاقناع بالفكر ولباقته وكياسته فيه .

(٥) ان الفكر قد يصحبه شعور شديد وهذا الشعور له أثر عظيم في الحياة وهو نافع اذا استطاع المرء أن يمنع نفسه وهو يفكر من الانسياق في تيار سيل لأنه اذا لم يستطع حكم شعوره وضبطه لم يستطع أن يصحح رأيه وان يعالج ميل نفسه اذا حادت عن الصواب وان يعرف حدود فكره . ولكن من العجيب أن المرء كلما انساق وجرفه تيار سيل الاحساس في مجادلاته ومناظراته ظن الناس أنه صادق السريرة ، اذ لولا اقتناعه بصواب رأيه ما انساق مع الشعور الشديد في التعبير عنه وفي مناظراته . ثم يتخذون حكمهم بصدق سريرته حكماً بصواب رأيه والشعور المنفعل في انسان قد يستنبط مثله في غيره بالقدوة والايحاء وقد أوضح شارل لامب في رسالة الأغلاط الشائعة بطلان هذا الرأي وهذا الحكم لأن الشعور الشديد قد يكون ناشئاً من النزعات النفسية التي قد تتخذ الفكر مطية لتبلغ به غايتها وان كانت غاية باطلة ، أو لتتخذه ستاراً يحجب عن صاحبها وعن الناس كنهها وحقيقتها المستترة وراء الفكر . وصدق السريرة إذا فرضنا وجوده في صاحب الشعور الشديد لا يمنع من الانحياز لباطل كما قال جوته : أستطيع أن أعد أن أكون صادق السريرة ولكني لا أستطيع أن أعد بأن لا أنحاز مع صدق السريرة الى الباطل لأن صادق السريرة يجهل انحياز نفسه اليه بحكم صدق سريرته .

(٦) إن معرفة الصواب لا تمنع من مواقعة الأخطاء التي يصححها ذلك الصواب اذا كانت أخطاء متصلة بميول النفس فتكون حبيبة الى النفس، وتأبى العواطف على المرء إلاَّ أن يعود اليها. وكذلك الخطأ في الأمور النظرية أو العملية التي ليست متصلة اتصالاً وثيقاً بعواطفنا تعود اليه بعد معرفة الصواب اذا لم يفسر وجه الخطأ وسببه ومكانه وحدوده تفسيراً مقنعاً يؤدي الى رسوخ الصواب، فان من يكتفي بشرح الصواب من غير نظر الى الأخطاء التي يقع فيها الناس ومن غير تفسيرها قد يبذل جهداً عظيماً ويتكلف مشقة هائلة، ولكن قد يكون عمله كله عملاً ضائعاً لا أثر له. وقد يتعجب لضياع عمله وجهده ويدهش لأن تعبه في شرح الصواب لم يثمر وذلك لأنه لا يفطن الى أن شرح الصواب لا يكفي اذا لم يشرح الخطأ أو الأخطاء اذا تعددت. وهذه قاعدة هامة في التعليم اذا أهملها المعلم ضاع عمله وحبط كل الحبوط. ومن أجل ذلك قد يظن المناظر ظناً باطلاً أنه فند رأي مجادله أو مناظره اذا شرح رأي نفسه ولم يلتفت الى رأي منافسه في المناظرة ولم يبين أوجه الخطأ فيه. وقبل أن يفعل ذلك ينبغي لكل مناظر أن يذكر رأي خصمه بدقة حتى يثق من أنه يعرفه تمام المعرفة فلا يجادل فيما هو خارج عن الموضوع وهو يحسب انه موضوع رأي مناظره. وجوتا يحتم هذه الطريقة لأن الخروج عن الموضوع أمر كثير الحدوث.

(٧) إن الأفكار الصحيحة والمبادىء العامة المقبولة اذا اقترنت بغرور الانسان سببت اضراراً مخيفة فهو يحسب انه يعمل لهذه الأفكار والمبادىء، ولكنه في الواقع يعمل حسب ما يوحي اليه غروره، فتكون عواقب أفكاره وأعماله وخيمة. ولا شيء أضيع من فكرة ناضجة في ذهن غير ناضج فانها تكون مهما عظمت وجلَّت عاقراً أو تنتج غير المنظور منها. وكل فكرة عظيمة عند بدء ظهورها تكون لها سيطرة طاغية. ومن أجل ذلك قد تنقلب مزاياها كلها أو بعضها الى نقائص وهذا بسبب اندفاع النفس في العمل لها من غير فطنة الى الأفكار والحقائق الأخرى التي تحدها.

(٨) اذا أكثر انسان من مجالسة غيره وأطال الحديث ولم يخلقه تصريحاً أو تعريضاً بأية وسيلة وعلى أي شكل كان الخلق، حتى ولو كان مجاملة، ولم يشعره السرور في نفسه بنفسه بأية واسطة فان جليسه لا يسر بمجالسته، وقد يظن به الظنون ويشعر بالانحراف عنه.

ومن أجل ذلك كانت المجاملة بالتملق من أهم أركان المجالسة والمعاشرة، ولا بد أن تكون من الطرفين لا من ناحية واحدة من ناحيتها . ومن حاول أن يستغني عنها في معاشرة الناس حتى الذين يذمون التملق وجد نفسه مكروهاً ومجالسه كريهة بغيضة .

(٩) ان الحياء والشجاعة صفتان لا يمكن أن يحاكيهما انسان اذا خلا منهما، ولكل منهما مظهر واحد لا كبعض الصفات التي تتخذ مظاهر وألواناً متعددة . ومع ذلك فان بعض الناس مخدوع بهما فيحسب الحياء جبناً وذلة ، ويعد الصفاقة والقحة شجاعة ولولا كثرة المخدوعين في هذه الصفات ما زهد كثيرون في الحياء ولا تنافسوا في الصفاقة والقحة ، فان التثاقل على الحياة يدعو الانسان الى الفرار مما يعده ذلة كي لا يستذله الناس . ورغبه فيما يخال شجاعة كي يخيف به الناس . ولا شيء يغيظ الناس مثل وجدانهم الشجاعة عند ذوي الحياء اذا اعتدوا عليهم اعتماداً على حلم حيائهم ، وعلى عدم الحياء ذلة، فلا يجدون ذلة ولا استكانة ، بل أن بعض ذوي الحياء اذا لم يجد محيصاً عن ذلك يبذ ذوي الصلاطة في سلاطة لسانهم . وقد فطن شعراء العرب الى اقتران الحياء والشجاعة وعدوا ذلك الاقتران مثلاً أعلى كما قال الفرزدق :

يُغضي حياء ويُغضى من مهابته فلا يكلَّم الاّ حين يبتسم

وقالت ليلى الأخيلية فيمن حياؤه يخال سقماً وهو في الحرب زعيم :

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما

حتى اذا رُفع اللواء رأيته تحت اللواء على الجيوش زعيما

وفي رواية (على الخميس) وهو الجيش . ومثل هذا أو أكثر مبالغة قول متمم ابن نويرة في رثاء أخيه وكان المرثي سيد قبيله .

فتى كان أحيا من فتاة حييّة وأشجع من ليث اذا ما تَمرّطا

ومثله قول الآخر

اذا قيل العوراء أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذلّ ولو شاء لانتقم

(١٠) الحقيقة هي أن أغلاط المرء وأخطاءه وعيوبه هي التي تحببه الى الناس ما داموا

واثقين انها لا تفرهم لأنه بها ينخفض الى مستواهم ولا يرتفع عنه . أما لو كان معصوماً مُنَزَّهاً من العيوب أنكره الناس أو حسدوه أو كرهوه . ومن أجل ذلك كثيراً ما يلبسون الفضل ثوب العيب كي يكون حجة لكرهه ، أو كثيراً ما يضحون بأناس كي يثبتوا أنهم أنفسهم على غير الصفات البغيضة التي يدعون كرههم من أجلها . وهذا الإسراع الى إثبات خلوهم منها يريب ، إذ لولا وجودها فيهم ما تسرعوا بخلعها على غيرهم وكرههم بسببها ، مع ان القاعدة السيكولوجية هي ان النفس تراح إذا عرفت أخطاء المرء أو عيوبه ، حتى انها من ارتياحها واطمئنانها تعطف عليه في سريرتها ، وتود لو شكرته لأنه بعث إليها الاطمئنان بنفسها على عيوبها التي تعرفها منها .

(١١) التملق دليل على ان المتملق لا يشعر بمحبة أو مودة لمن يتملقه ، فهو بالتملق يستعيض عنهما بدلاً كي يبلغ ما يريد ، ومع ذلك فإن الناس تعد كلامه دليلاً على المودة والمحبة والانصاف لأنهم لا يرون فيما يمدحهم به باطلاً ، بل مدحه لهم حقيقة وانصاف حتى ولو كانوا بجانب من عقولهم يشكون في بعض قوله ، ويكون أكبر همهم اذا تملقهم انسان ليس البحث في صدق قوله ، بل التأكد من انه لا يريد السخرية بهم بذلك التملق . ولاسيما اذا غالى في عبارات التملق فإن المغالاة في التملق تكون أشبه بالسخر .

(١٢) ينبغي أن لا نتعجب إذا تحولت الصفات الحميدة بالتدرج الى شر مكروه ، فإن معاني الصفات متصلة متدرجة في النوع والمقدار ، فقد تتحول الغبطة الى حسد ، والحسد الى بغض ، والبغض الى حب الشر ، وحب الشر الى ارتكاب الآثام والجرائم . وقد يبدأ هذا التدرج بما هو أمر بريء ويصل الى ما هو شر مكروه . وذلك اذا استسلم المرء الى النزعات التي تُحْدِث هذا التحول . ومن أجل ان صفات النفوس متدرجة قد لا يفطن المرء إلا بعد سنين طوال انه قد استرسل من الصراحة في القول الى الثقة بالنفس ، ومن عظم الثقة بالنفس الى الهوج في العمل ، فينزلق انزلاقاً بطيئاً لا يشعر به من الأمر البريء من العيوب الى ما يجمع الأضرار الكثيرة .

(١٣) في طبيعة الانسان عناد وتناقض فإنه يأبى أن يُرغَم على ما فيه خيره وفائدته ، ويَرضى مختاراً أن يتقيد بما فيه ضرره ، وهو اذا وجد نفسه راضياً مختاراً للتقيد

أكسبته مظاهر حرية الرضا والاختيار اطمئناناً وتعاظماً يلفتانه عن قيده وضرره . أما في حالة الارغام على ما فيه خيره، فإن غضاضة الارغام تحز في نفسه وتؤلمه فتلفته عما فيه من الخير وتزهده فيه، وهذان التضاد والتناقض ظاهران في حياة الأطفال. وقد يعجب منهما الرجال ولو فحصوا عنهما في حياتهم لوجدوهما في نفوسهم أيضاً .

(١٤) أنظر في نفوس الناس ثم أنظر في نفسي فلا أجد خطأ من أخطائهم كان من المحال أن ارتكبه، وادعاء العصمة والترفع عن الناس أمرٌ عسيرٌ لا يكلف صاحب الادعاء مشقة. ولكن هذا الاعتراف من جرثا يتطلب شجاعة وعظمة نفسية لا تتفق لكل انسان وقد لام بعض الأدباء جوتا على اعترافه في كتابه الذي يترجم فيه حياته والمسمى بين الحقيقة والخيال إذ قال انه كان في عهد صغره يحلم يقظاناً في أحلام العشة ان أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن، وان أباه اذاً ليس الرجل الذي ينتسب اليه . وقد زكى هذه الشجاعة الكاتب الانجليزي سمرست موام في كتاب الخلاصة . على انه عاد بعد اعترافه الأول فقال : وكل ما حاولت عمله أو عملته وكان بسبب نزعات باطنة قد حاولت أيضاً ان أفهمه، وأن أتعلم منه، وان أدرس الدواعي اليه وأن أزيلها اذا استطعت .

(١٥) اذا تأمل الانسان جثمانه ظاهراً وباطناً في الاوقات المختلفة لا يعدم ان يجد وعكة أو نقصاً أو مرضاً أو ضعفاً، وكذلك اذا تأمل نفسه في حالاتها المختلفة . ومن أجل ذلك تدفع النفس نفسها دفعاً عن التأمل في صفاتها التي تكرهها أو تلبسها لدى نفسها لباس صفات أخرى، أو تتخذ لها حجباً وأعذاراً تزكيها. فقلما تفكر النفس في صفاتها بصدق وجد وإمعان وإلمام .

(١٦) قيل ان العمل ناشيء من الارادة، وقيل انه ناشيء من العرفان، ولكن الانسان لا يستطيع أن يعمل اذا أراد إلا اذا كان يعرف ما يريد عمله. ومن أجل ذلك لا أرى في الحياة أمراً مخيفاً مثل أمر الرجل الذي يعمل وهو لا يعرف ما يعمل .

(١٧) اذا أرضينا غيرنا عزّ اذا ذلك عن عدم إرضائنا لأنفسنا عند محاسبتها في القول والفكر والعمل فتسير نفوسنا وتتنعش وتنشط — ويكون نشاطها اذا أرضينا غيرنا بالحق

ولكن من الأسف ان هذا قد يصدق أيضاً اذا أرضينا غيرنا بغير الحق وبعمل الباطل لأن ما نلاقيه من العطف والحث يغريها به .

(١٨) في هذه الدنيا كثيراً ما يقيس الناس الرجل بالمقياس الذي يقيس به نفسه،على شرط أن يحدد قيمته ويلتزمها،لأنه يسهل على الناس بالقياس ان يعاشروا رجلاً اعترفوا له بقيمة معينة وان كانوا يكرهون عاداته . ويشق عليهم ان يعاشروا رجلاً لم يحدد قيمته ومنزلته،وجهلهم بها يضايقهم ويدعهم الى الشك فتساورهم به الظنون .

(١٩) ليس الضُّـم في التفكير في عيوب الأصدقاء،ونقائص من نعرف،لأن التفكير فيها يؤدي الى القناعة بحالتنا النفسية على ما بها من نقص، ويؤدي بنا الى الغرور. أما التأمل في فضل الخصوم فهو الضُّـم لأنه يؤدي بنا الى محاولة التشبه بفضلهم وبفضائلهم .

(٢٠) لابدَّ من أن تكتسب النفس من ضبط النفس بقدر ما تنال من الحرية لأن كل أمر يحرر نفس المرء من غير أن يعطيها قدرة على حُكم نفسها يضرها ويدعوها إما الى الافراط وإما الى التفريط .

(٢١) أكثر شرور الحياة ناشئة إما من عجزنا عن أن نضع أنفسنا موضع غيرنا ، وإما من عجزنا أن نضع غيرنا موضع نفوسنا. والوضع الأول لو أمكن يزيل الحقد والحسد وسوء الظن، والثاني يزيل الغرور والأثرة والكبر وقلة مبالاة ما يعانيه الناس .

(٢٢) ان التجاذب ليست له قاعدة واحدة فبعض الناس يحب من يشابهه،وبعضهم يميل الى من يخالفه.ومن أجل ذلك نرى تجاذب الأشباه — وربما كان هذا أكثر — كما نرى تجاذب الاضداد.وقد يوجد تجاذب الأضداد بالرغم من تنافر وتخالف وتخاصم .

(٢٣) كثيراً ما يظن المرء اذا استطاع أن يعمل عملاً مرة واحدة أنه يستطيع أن يعمله مراراً فتظهر خيبته وعجزه إذا حاول ذلك الا اذا فقهه وتمرّس به،ولم تتغير نفسه ومقدرته. وأعجب من ذلك أن الانسان قد يظن أنه يستطيع أن يعمل ما لم يعمله قط اذا رأى غيره يعمله ، مع أنه لم يجرب قدرته ، ولم يكتسب مراناً عليه .

(٢٤) ليس بين الناس من لا يحسد صاحب المواهب العقلية الا الأب ، فان الأب لا يحسد ابنه لأنه كان سبب حياته وربما أقنع نفسه أن ابنه استمدَّ مواهبه منه . وقد على

ضوبنهور هذا الحسد بأن المرء قد يأمل أن يوفق وان تساعده الحظوظ فيكسب مثل بعض مال ذوي المال.أما ملكات العقل واستعداده فأمور طبيعية.ومن لم تكن عنده لا يطمع في حيازتها . ومن أجل ذلك كان الفكر مع الفقر محسوداً أكثر من الغباوة مع المال . هذا عدا أن صاحب المال يطمع الناس في نيل معونته ويصول بما يهيئه له ماله من النفوذ فيختفي حسد ذوي الحسد،بينما يكون صاحب الفكر معرضاً لسوء الظن بفكره ونتائجه وليس عنده مطمع لذوي الحسد ولا عنده سلطان المال.

(٢٥) بالرغم من أن شدة تعلق المرء بآماله تجعله يتوقعها حتى يصير في توقعه كأنها قد حدثت، فان حدوثها بالرغم من ذلك يكون مصحوباً بشيء ولو قليل من الدهشة والمباغتة وذلك من الشك الذي يلازم هذا التوقع مهما كان موثوقاً به. ولعل أورد الفعل في الاحساس يظهر أيضاً هذا الشك الذي يسبب الدهشة ، فان كل احساس شديد لا بد أن يكون له رد فعل كي تستقر الأمور ، اذ انه يعرف انه كان يغالط نفسه في انزال آماله منزلة الحقائق .

(٢٦) إن مجالسة النساء تكسب الرجال آداب السلوك لأنهم يتخلقون بما يناسب مجالسهن فيكتسبون رقة وحياء وآداباً،ويترفعون عن سعار المهاترة ورفث التقول ، ولكن في البيئات التي يكون الرجال فيها قدوة للنساء،ولا يتورعون فيها من الاسترسال على طباع الخشونة والمجون اذا جالسوا النساء ، تتخلق النساء بهذه الطباع وأشباهها من الطباع التي صاغها فلوبير وكابيري ، أي الطباع الكلبية بدل ان يكسبن الرجال من آدابهن وحيائهن .

(٢٧) غفلة بعض الناس عن الحق قد تكون كالنوم الذي يجدد نشاطهم . فاذا استيقظوا ونبهوا الى خطأ شعروا بنشاط جديد في طلب الحق والصواب.ولكن غيرهم اذا لفتوا الى خطأ تتخاذل قوى أنفسهم ويظهرون الاستخذاء والاسترخاء ، والطائفة الأولى هي طائفة الفائزين.

(٢٨) قلما يهم المرء انتصار الحق إلا اذا كان انتصاره يزكي فكره وقوله.أما اذا كان لا يزكي فكره وقوله لم يهتم له ولجأ الى الباطل يتخذ منه حجة ولا يهمه بعد ذلك لو مات الحق لأن عنده ان الحق ما يرى ويقول أو يغالط نفسه وهو يعرف كذب ذلك.

(٢٩) ان الخلق القوي في انسان قد يستنبط الخلق القوي في غيره . وهذه النظرة تذكرنا قول جورج اليوت إن من لا ثقة له بنفسه قد يأنس الى من له ثقة كبيرة بها ، كما يأنس الذي أصابه البرد الى من أصابه الحر كي يفيد حرارة ، والخلق له عدوى وإيحاء . ألا ترى ان الجندي يكتسب قدرة على تحمل الآلام وشجاعة برؤية قدرة وشجاعة غيره من الجنود في الحروب . وكذلك عدوى الخلق في الحياة اليومية .

(٣٠) يؤلمني أشد الألم أن أرى الانسان الذي جُعل تاج الخليقة ورأسها وذروتها كي يُحَرِّر نفسه وغيره من حكم الضرورة القاسية بالفكر والعمل ، يعمل ضد ذلك بسبب الانحياز للباطل المُحَبَّب الى النفس فينغمر في حكم تلك الضرورة القاسية ويغمر غيره في حكمها . ومن أجل ذلك نرى حياة الانسان تتقدم بلا تقدم عصراً بعد عصر وترتقي من غير ارتقاء .

(٣١) اذا سمع الناس انساناً يمدح نفسه قالوا إن مدح النفس له رائحة كريهة . ولكن الظاهر ان أنوفهم لا تشعر بالرائحة الكريهة التي في ذمهم غيرهم وهو مدح معكوس لأنفسهم .

(٣٢) مما يُؤدِّي الى حيرة الانسان أنه إذا طلب أمراً واتخذ له وسيلة ركب الشطط في طلب الوسيلة ويغالي بها حتى يهمل الغاية وينساها في طلب الوسيلة فيحيد عما يريد ، لأن الوسيلة متى صارت غاية في نفسها قد يتخذ لها هي أيضاً وسائل مستقلة عن غايتها الأولى وقد تمنعه من بلوغ تلك الغاية الأولى وكذلك من يضع الغاية موضع الوسيلة .

(٣٣) إننا أسرع الى الاعتراف بأخطاء عملنا وأبطأ في الاعتراف بأخطاء فكرنا لأن أخطاء العمل لها عواقب ظاهرة بارزة من الصعب إنكارها ، أما أخطاء الفكر فقد تخفى أو نستطيع المغالطة فيها . ومع ذلك فمن الناس من يماري في اخطاء عمله ، وهي ماثلة أمامه ، إذ ينسب تلك الاخطاء الى غيره ، أو الى سبب آخر غير سببها .

(٣٤) إن الانسان مولع بأن يربط كل شيء بحياته وحاجاته . فصاحب الطاحون يشعر أن القمح إنما نبت ونما كي يعطي له عملاً بطحنه ، وكي تظل طاحونه دائرة . وقس على ذلك كل امور الحياة .

(٣٥) ان الانسان مشغوف بمعرفة المستقبل. وهذا الشغف سببه انه يميل الى تصديق حدوث ما يود ان يحدث فيه . وهذه صفة يعرفها الدجالون . ويبنون عليها أقوالهم عند ادعائهم كشف المستقبل .

(٣٦) في جميع العصور كانت الآحاد من الناس هي التي تعمل على تقدم العرفان . أما الجماعات والحكومات فإنها تتنازعها عوامل ودوافع مختلفة قد تؤدي بها الى تقييد العلم حتى في أثناء نشره (وفي كتاب أسباب تفاوت الناس للاستاذ هالدين فصل ممتع في هذا الموضوع) . وعلى أي حال فالحكومات والجماعات تسرّ بجامعي العلم والحفّاظ وأهل المرونة أكثر من عنايتها بذوي الفكر المستقل .

(٣٧) بعض الناس الذين تمر حياتهم من مبدأ أو فكرة قد لا يستطيعون فهم ما تمر عنه حياتهم فيركبون الشطط، ويتزلقون الى الخطأ والخلط . وقد كان نابليون يحتقر الأفكار قائلاً إنها نظريات قليلة الأثر، مع انه كان يعترف بالعمل أن لم يكن بالقول ان الحياة الفكرية تبعث الحياة، والفكر يبعث العمل .

(٣٨) عند ما يعمل انسان لا بد له من ان يرى أن نفسه أعظم من حقيقتها كي يستطيع أداء عمله . وهذا أمرٌ مغتفر بسبب ضرورة العمل إلاّ اذا كان تعظمه في الثقة بنفسه يضر غيره أو يؤلمه أو يقلقه .

(٣٩) اذا عمل الانسان لخير غيره ونفعه فإنما يعمل كي يشاركه من يعمل لخيره في السرور بذلك العمل، ومن لا يستطيع السرور بالعمل لغيره يُضرّ ويُؤذى بذلك العمل. والظاهر ان في هذا القول ما يخالف قول كانت (ان المرء لا يستطيع ان يحكم أن الواجب هو دافعه الى العمل إلاّ اذا كان العمل يخالف نزعاته السارة وميوله المبهجة) . ولو أن قول كانت حكمٌ بصعوبة معرفة الدافع اذا وافق العمل نزعاته السارة .

(البحث بقية) ع . ش